الفصل الأول
حضارة الغرب وحضارة الشرق
في الميزان

obeikandl.com

obeikandl.com

الحضارة... مصطلحات وتعاريف:

قد يتبادر إلى الذهن أولاً أننا سنلجأ إلى إيراد التعريفات العديدة لمفهوم الحضارة، وتلك التعريفات لا حصر لها إذا أوردنا كل ما قاله علماء الاجتماع الغربيون والشرقيون وغيرهم.

وبشكل عام، فالحضارة كمصطلح تعني البناء المادي والثقافي لأي شعب من الشعوب، ويزيد العلماء على ذلك بكلمة أو بجملة أو بسطر أو أكثر، وكل ذلك حسب الوقت الزمني الذي عاشوا فيه.

وقد كانت التعريفات التي صدَّرها علماء الاجتماع والأجناس في أكثرها تعريفات غربية، ساهم فيها أمثال إميل دوركهايم وسبنجلر، وتوينبي وويبر وداوسن وغيرهم من هؤلاء العلماء.

ومن دواعي القول إن تعريفات هؤلاء العلماء صُدرت لنا وأخذنا بها وصار أي مصطلح غربي عن الحضارة في متناول أيدينا وعقولنا لا نحيد عنه وكأنه أصبح منزلاً من السماء.

وقد كشف المفكرون الفرنسيون عن فكرة الحضارة وطوروها في القرن التاسع عشر كنقيض لمفهوم البربرية، فالمجتمع المتحضر يختلف عن المجتمع البدائي لأنه كان مستقراً ومدنياً وليس أميّاً.

ومعيار الحضارة حسب هنتغتون قدم معياراً نحكم به على المجتمعات[1].

أما المفكرون الألمان فقد وضعوا في القرن التاسع عشر تمييزاً حاداً بين الحضارة التي تتضمن الآلات والتكنولوجيا والعوامل المادية وبين الثقافة التي تتضمن القيم والمثل والصفات الذهنية والفنية والأخلاقية الراقية في المجتمع.

---

(1) صموئيل هنتغتون/ صدام الحضارات، ص68.

وقد رأى بعض العلماء أنه لا يجوز الفصل بين الثقافة والحضارة المادية، فالحضارة والثقافة كلاهما يشير إلى مجمل أسلوب الحياة لدى شعب ما، والحضارة هي ثقافة على نطاق واسع وأوسع.

ويرى آخرون أمثال وولرشتاين بأن الحضارة نظرة مركزة إلى العالم والعادات والبنى الثقافية المادية والراقية معاً، التي تكون نوعاً من الكل التاريخي، وبعضهم يرى أن الحضارة نتاج عملية أصيلة خاصة من الإبداع الثقافي والتي هي من صنع شعب ما.

ويرى دوركهام أن الحضارة نوع من وسط أخلاقي يضم عدداً معيناً من الأمم وكل ثقافة وطنية هي شكل خاص من الكل. وعند شبنجلر فإن الحضارة هي المصير الحتمي للثقافة.

إذاً ليس هناك اتفاق على تعريف واحد للحضارة، فالفرنسي يعرفها حسب ما عايش وحسب طبيعة تاريخ بلده وثقافته وهي حتماً ليست تلك التي يعرفها الألماني أو الإنجليزي أو الأمريكي.

وقد تناول الباحثون العرب والمسلمون الحضارة ووضعوا لها مصطلحات متعددة، وكمثال على ذلك يقول الدكتور محمد سعيد البوطي: «إن الحضارة ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة، ومدار الحضارة هو على الجهود التي يبذلها الإنسان في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها إلى حياة العمران وتعقيداتها، والحضارة ليست أكثر من ثمرات الجهد الذي يبذله الإنسان لاستغلال المكونات التي من حوله في سبيل تحقيق مقومات المجتمع الإنسان وبث أسباب الخير والسعادة فيه»[1].

وقد ساهم الشيخ أبو الأعلى المودودي في تعريف الحضارة تعريفاً غريباً، إذ يقول: «الحضارة مجموعة المبادئ والعقائد والأفكار والأصول التربوية التي تثمر لوناً من ألوان الحياة الاجتماعية بمقوماتها المختلفة»[2].

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص20.

(2) أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها.

فالحضارة على هذا الأساس صفة للناس والجماعات وليست صبغة تبقى على الأرض، والحضارة على هذا تزول بزوال الناس المتصفين بها مهما بقيت لها وراءهم من آثار[1].

ويرى المفكر مالك بن نبي رحمه الله: «أن الحضارة ليست كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع كان، ولكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة ليس المجتمع المتخلف في حالة تكيف معها، لا من حيث رغبته ولا من حيث قدرته، أو بعبارة أخرى لا من حيث أفكاره ولا من حيث وسائله»[2].

وحين ننتقل من إطار التعريفات والمصطلحات إلى حقيقة وجود الحضارات، لابد لنا أن نعود إلى أكثر العلماء المتخصصين في دراسة التاريخ الحضاري، وهو المؤرخ أرنولد توينبي من خلال دراساته التي استمرت عشرات السنين، يرى توينبي: «أن الحضارات إحدى وعشرون حضارة لم يتبقَّ منها سوى خمس: المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، وحضارة الشرق الأقصى، وتضاف إليها مخلفات المجتمعات المتحجرة غير المعيّنة الشخصية مثل حضارة اليهود والبارسيين»، ويرى: «أن الحضارات الخمس القائمة في الوقت الحاضر تنتسب إلى حضارات أقدم منها، من ذلك حضارة المسيحية الغربية واتصالها بالمجتمع الغربي بينما المسيحية الأرثوذكسية ذات اتصال بالمجتمع الهليني اليوناني، وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامي نجد أنه حصيلة اندماج مجتمعين كانا متمايزين في الأصل، وهما الإيراني والعربي، وباقتفاء هذين المجتمعين نجد وراءهما مجتمعاً مندرساً يدعى المجتمع السوري الذي تفرع بدوره عن المجتمع السومري[3].

---

(1) محمد سعيد البوطي، منهج الحضارة الإنسانية، ص20.

(2) مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، القضايا الكبرى، ص67.

(3) أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج4، ص8.

ولا يقبل توينبي الفكرة القائلة بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية كما يدحض نظرية استطارة الحضارة القائلة بأن مصر هي أصل جميع الحضارات وعنده أن من بين المجتمعات الحضارية الإحدى والعشرين ثمة خمس عشرة حضارة تتصل بصلة النبوة بحضارات سابقة.

وبرأيه لا يمكن أن يُعزى قيام الحضارات إلى صفات معينة في جنس من الأجناس، إذ لا يمكن أن يرتبط التفوق الروحي والذهني بلون البشرة، فالواقع أن جميع الأجناس قد ساهمت في انبعاث الحضارة.

ويرفض توينبي النظرية القائلة بأن توافر ميزات خاصة في بيئة معينة يكفل انبعاث الحضارة فيها، فلا يمكن اعتبار البيئة هي العامل الحاسم الذي جلب الحضارات إلى الوجود.

ويرى توينبي أن أسباب انهيار الحضارات هي إخفاق الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة، وطغيان الأقلية على الأكثرية، وفقدان الثقة بين أقلية المجتمع الحاكمة والأكثرية المحكومة[1].

أما ارتباط الحضارة بما تستهدفه من خير وشر فلا علاقة لها بالنتائج، فقد تهتدي حضارة إلى سبيل من المبادئ فتحققها وقد لا تهتدي إليها فتتنكب عنها، فهل يتدخل ذلك في تحديد معنى الحضارة؟ إن هذا ما لا شأن لمدلول كلمة الحضارة به، إذ رب حضارة رفعت أمة من الناس إلى أعلى درجات السعادة والرخاء مع توفر القاسم المشترك بينهما، وهو أن كلاً منهما كان ثمرة لتفاعل الإنسان مع الكون والحياة بقطع النظر عن تلك الثمرة وآثارها، ضارة كانت أم نافعة[2].

ويشرح الدكتور البوطي ذلك بقوله: «أما الحضارة فليست في جوهرها وحقيقتها أكثر من ثمرة تفاعل يتم على نحو ما بين طرفي الصلاح والفساد بمقدار

---

(1) المرجع السابق، ص14.

(2) محمد سعيد البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص22.

ما يكون ذلك التفاعل الثلاثي سديداً أو غير سديد، أي بمقدار ما يكون فهم الإنسان لتلك العناصر الثلاثة القائمة بينها فهماً صحيحاً أو غير صحيح»[1].

كيف نفهم الحضارة مصطلحاً وواقعاً؟.

لقد رأينا بعض التعريفات اللغوية والاصطلاحية لمفهوم الحضارة ورأينا كيف أن كلَّ من عرَّفها اختلف عن غيره زيادة أو نقصاناً أو افتراقاً.

ومع احترامنا لكل أساتذتنا الذين تناولوا هذا المفهوم بالتعريف والتفصيل إلا أننا نرى أن الحضارة هي نتيجة تفاعل بين الإنسان والكون والحياة بما ينفع الناس من خير ولصالح البشرية جمعاء.

إن التفاعل بين الإنسان والكون والحياة ينتج بناء مادياً وآخر روحياً، والبناء المادي يرتبط بكل مرافق الحياة من عمران وإنشاء المجتمعات المدينية والتكتلات البشرية في قرية أو بلدة أو ما شابه ذلك.. فالتفاعل بين الإنسان وبين محيطه لابد أن يولد الميل إلى الاستقرار، وهذا الميل يولد التجمع البشري، وإن بدأ بأسرة أو مجموعة أسر تربطها روابط روحية واجتماعية واقتصادية معينة، ولاشك أن سيرة حياتها تستجلب قادمين آخرين أو أناساً آخرين تروق لهم الحياة فينضمون إلى ذلك التجمع حتى يبلغ مداه من الكثرة والتوسع العمراني، ولاشك أن التوسع العمراني يستلزم ملحقاته من طرق وآبار مياه ومدارس وساحات إلى آخر ما هنالك من مستلزمات المدينة والمدنية.

وبقدر ما تكون العلاقة خيّرة بين أفراد هذا المجتمع بقدر ما تكون السمات الحضارية إيجابية وفاعلة، وبقدر ما تكون شريرة فإنها تمنح المجتمع سمات سلبية تؤدي به إلى التنافر والتباعد والهلاك.

إن كلمة «حضارة» بالمفهوم المجتمعي الإنساني تعني الاقتراب من التحضر، فالإنسان المتحضر ليس شرطه أن يكون منتقلاً من البداوة إلى الحضر، فقد تجد

---

(1) محمد سعيد البوطي، حوار حول مشكلات حضارية، ص72.

إنساناً قد نطلق عليه (حضري) وهو في سلوكه متوحش قاتل ظالم قاهر لا يتمثل القيم السامية ولا يطبق سلوكاً إيجابياً بين الناس.

وحتى نبتعد عن المصطلح النظري المقعّر، علينا أن نعترف أن التحضر هو نفسي عقلي قبل أي شيء آخر، فلا يصح أن يكون إنسان مريض نفسياً وقاصر عقلياً أن يبني حضارة مادية، وبطبيعة الحال فإن الإنسان العاقل السوي لديه قابلية وميل قوي نحو البناء الحضاري المادي.

ربما نختلف حول مسألة حساسة وهي أن الإنسان قد يبني حضارة مادية ومعنوية لكن قد ينحاز بعيداً عن الخير إلى الشر، ويكرس حضارته في سبيل الشر فهذا حسب رأي بعض الباحثين في الحضارة لا ينفي كون هذا الإنسان قد بنى حضارة.

فالدكتور البوطي يقول: «ولعلك تعجب من أن يقال حضارة ولم تأتِ إلاّ بشرّ، ولعلك تقول وهل يثمر العلم بالكون وسبل الاستفادة منه إلا خيراً للإنسانية جمعاء؟ فالجواب أن البلاء الذي تحمله الحضارة للناس مردُّه إلى أحد سببين:

السبب الأول: رعونات النفس الإنسانية وأهواؤها، فإن من شأنها إذا تركت على سجيتها أن تحمل أصحابها على بسط أسباب الظلم والطغيان وإيقاد نيران الشرور والفتن على وجه الأرض، وإنما تصبح الإمكانات العلمية والقدرات البشرية عندئذ أسلحة في يد أصحابها لإيقاد مزيد من النيران.

السبب الثاني: إن الناس كانوا ولا يزالون يبحثون عن حقيقة كل من الخير والشر دون أن يعثروا عليهما، فقد ضلوا عنهما بسبب وقوعهم في متاهات من المواصفات والأعراف النسبية وبسبب عدم اتفاقهم على مقاييس ثابتة لمعنى كل من الخير والشر فكان من آثار ذلك أن أصبحت الجهود الحضارية تجارب اجتهادية متناقضة في أكثر الأحيان في نطاق السعي إلى ما يظن أنه الخير والسعادة للإنسان»[1].

(1) د. محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص 22 ـ 23.

من خلال ما طرحه الدكتور البوطي نستنتج أن الإنسان بانحرافه يكرس الحضارة من أجل الشر ولا ذنب للحضارة في ذلك. وفي السبب الثاني أن الإنسان يتخبط في معرفة الخير والشر لذلك يقع في إشكال عدم التمييز بينهما.

وهنا قد نختلف بعض الشيء مع هذا الطرح لأننا نرى أن الإنسان العاقل السليم نفسياً يعرف مسبقاً أنه يبني هو هذه الحضارة لتقدم السعادة له ولمن حوله والخير الذي يعم. فإذا كان الإنسان مشوش العقل مريض النفس فإنَّ سعيه لبناء حضارة ما سيكون سعياً مشوشاً يميل إلى الأنانية والعنصرية، ومن هنا تبرز التربية العقلية والنفسية الدينية في وضوح الهدف من بناء الحضارة، وفي الحضارة الإسلامية رأينا أن المسلم الحق هو الذي يفهم ويدرك لماذا يبني الحضارة الإنسانية فهي المستندة إلى أسس قرآنية واضحة أولها قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

ومن هنا أيضاً نقول: إن سلامة الإدراك النفسي والعقلي للغاية من إقامة الحضارة يعني النية المسبقة لخيرية الحضارة، وطالما أن هناك أساساً ثابتاً واضحاً فإن الاعوجاج إلى استخدام الحضارة في الشر يصبح أمراً مستحيلاً، وقد افترض الكثيرون أن الحضارة العربية الإسلامية قد اندحرت وتراجعت وتقدمت الحضارة الغربية عليها خاصة في مجال العوم والتقدم التقني في كل المجالات.

ولكن الواقع المنظور يقول لنا إن التأخر في مجال ما من العلوم أو التقنيات لا يعني تراجع الحضارة، وأنا أعتقد أن جوهر الحضارة الإسلامية يقع في أن القرآن والسنة النبوية والتاريخ الحقيقي لأمة الإسلام ما تزال جميعها حيّة، وباحثة على الحضارة المادية، فالمقياس هنا هو أن الإسلام ينبني حضارياً على ما قدم للبشرية من رؤية إلهية نبوية لسعادة البشر، وهذه الرؤية ما تزال حية متألقة في كتاب الله وسنة نبيه.

إن الحضارة الغربية التي تتقدم بشكل مذهل في جميع مجالات العلوم والتقنيات اعتمدت الأصل المادي للحياة الحضارية، وكذلك الغاية المادية للبشرية،

وإذا تساءلنا ماذا تقدم الحضارة الغربية اليوم من قيم خالدة ومُثل إنسانية روحانية عقلية صافية وليست مشوشة؟. فإننا نجيب على الشكل التالي:

(إن الحضارة تفاعل بين الإنسان والكون والحياة بما يخدم الإنسانية من خير) وهذا الخير إن لم يعمّ البشرية ويساوي بين البشر فإنه ليس خيراً، بل هو منفعة لشعب دون شعب وأمة دون أمة.

ومن هنا كان الخطاب القرآني في بناء الحضارة موجهاً للإنسان كل إنسان ولم يقتصر على إنسان دون الآخر، لقد قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهذا الخليفة هو الذي استخلفه الله في عمارة الأرض وتسخيرها لخير البشرية.

إن البناء الحضاري نتيجة بكل المقاييس وهذه النتيجة ترتبط ارتباطاً عضوياً بالاستخلاف، فالله سبحانه استخلف البشر لعمارة الأرض لا لكي يقتل الإنسان أخاه الإنسان أو يعذبه أو يقهره أو يحتل أرضه ويشرده ويحرمه من العيش، ولا كي يصنع أسلحة دمار شامل تفتك بالإنسان وتفنيه من على وجه الأرض وقد يطرح سائل سؤالاً، هل حضارة أي شعب مهما بلغت من قوة وتقدم تخلو من الجيد والسيئ؟ وهل هناك مثل أعلى للحضارات؟.

إننا نعتقد أن دراسة أي حضارة تودي بنا إلى اكتشاف يقول لنا: ما من حضارة إلا وفيها السيئ والجيد.

ولكن إذا قسنا الأمور بمقياس الجوهر الفكري الديني نرى أن نسيان المبدأ الأساسي لبناء الحضارة حرف الناس عن الأهداف السامية للبناء الحضاري، فلو أن أي حضارة ومنذ نشأتها الأولى وضعت هدفها في إطار الخير وسعادة البشرية، وظلت واعية لهذه الأهداف ومطبقةً إياها فإنها تبتعد تماماً عن احتوائها لعناصر الشر، فالغاية الأساسية لبناء الحضارة والتحضر هي إبعاد الإنسان عن الشر وتعميم الخير على بني البشرية، ولكن المشكلة تقع في أن بناة الحضارة اختلفت نواياهم وأهدافهم حسب ما رسخت عقولهم عليه، وحسب ما تربوا عليه وتتلمذوا على أفكاره إن كانت أفكاراً دينية أو فلسفية وضعية أو ما شابه ذلك.

ومرة أخرى نقول: ما مقياس الاعتراف بأن هذه حضارة وهذه ليست حضارة؟ هنا لابد لنا من أن نصدم عقولنا ونفوسنا ولابد أن نسمع الاحتجاجات من هنا وهناك على ما يبدر منا حول تقييم حضارة ما.

فمن المعروف أن المصريين حسب آراء كثير من الباحثين هم أقدم من بنى حضارة مادية ومعنوية فهذه الأهرامات وهذا أبو الهول وهذه المعابد من الكرنك وغيره أكبر شاهد على هذه الحضارة التي تعود إلى ستة آلاف عام ق.م، فمن يستطيع أن ينكر على المصريين القدماء بناء حضارة ما تزال آثارها باقية حتى اليوم وهي تشهد على عظمة التقدم العمراني المصري؟.

ولكننا لابد أن نسأل ما هو الهدف المسبق لدى بناة الحضارة المصرية من بناء هذه الأهرامات وهذه المعابد الضخمة، وهل هذه الأبنية الحضارية تمثل الشعب أم تمثل الطبقة الحاكمة.

إذا نظرنا إلى بناء الأهرامات رأينا أنها بُنيت ليوضع جسد الفرعون المحنط داخلها باعتبار أن حياة أخرى تنتظره، فمن الذي بنى هذه الأهرامات؟.

في الواقع أن كل الدراسات تؤكد أن من بنوا هذه الأهرامات هم من العبيد الذين استعبدهم الحاكم الفرعوني المستبد، وكذلك من الأسرى ومن أفراد الشعب الفقراء، بمعنى أن الذين بنوا هذه (الحضارة) بنوها لأجل شخص الفرعون وليس للشعب والفقراء من الناس، وكم قُتل من هؤلاء وهم يرفعون حجارة هذه الأهرامات، وكم من السياط وقعت على ظهورهم ورقابهم وهم يجرون الحجارة الضخمة حتى تصل إلى مكان بناء الهرم.

إذاً ما هذه الحضارة التي أقيمت على جماجم العبيد والأسرى والفقراء من الناس؟ كيف نسميها حضارة وهي تقوم أساساً على هدف أناني فردي لا يصنع الخير للناس؟.

لقد سبق وقلنا إن الهدف يمتزج مع البناء، فإذا كان هدف الفرعون بناء هذا الهرم من أجل قبره وحده فاللعنة على هكذا بناء وعلى هكذا فرعون، فهو لم يبنِ

حضارة بل شيّد رمزاً من رموز القمع والقهر والقتل والتعذيب، ولذلك نقول: إن هذا الرمز الحضاري ـ كما يطلقون عليه ـ لم ولن يكون رمزاً حضارياً بل سيكون وسيظل رمزاً للشر وهذا ينافي أسس الغاية من الاستخلاف في الأرض، إن البناء الذي لا ينتفع منه كافة أبناء الشعب المشاركين في بنائه، وينتفع منه شخص واحد لا يعتبر رمزاً حضارياً بل هو رمز للتخلف العقلي والديني والنفسي، ورمز للشر والقسوة واستعباد بني البشر وجعلهم طبقة أدنى بكثير من طبقة الملك أو الكاهن الذي فرض على الناس الإيمان بأنه نصف إله.

وحين ننظر إلى ما قدمته الولايات المتحدة أو الدول الغربية من علوم وتقنيات ننبهر لهذا التطور العظيم المدهش خاصة إذا قارناه بما يقدم العالم العربي الإسلامي في تلك المجالات هذه الأيام.

وحين قدم صموئيل هنتغتون نظريته السخيفة أو رؤيته العنصرية في كتابه صدام الحضارات اعتبر أن الحضارة الغربية هي الحضارة الأمثل وهي التي ستبقى بما لها من مقومات اقتصادية وفكرية واجتماعية.

ولكن لنسمح لأنفسنا أن نضع الميزات ونقيس هذه الحضارة بالمقياس المنطقي والحضاري.

كيف بنى العالم الغربي تقدمه العلمي والتقني في كل المجالات؟.

ففي أمريكا مثلاً، منذ حوالي أربعة قرون أو أكثر قليلاً تدفق الأوروبيون على الأرض الجديدة أمريكا، وراحوا يبيدون السكان الأصليين من الهنود الحمر وما إن تكاثر الأوروبيون حتى راحوا يشنون حرب إبادة ضد هؤلاء السكان، وتشير الإحصائيات إلى أن أكثر من 114 مليون إنسان قتلوا من الهنود الحمر وأبيدوا بالقتل الجماعي، إما بالرصاص ومشتقاته، وإما بنشر الأمراض الفتاكة بينهم.

وتناسى هنتغتون أن هذا التقدم العلمي والتطور الأمريكي قام على جماجم ودماء شعوب بأكملها، فهل هذه حضارة؟ هل تقوم الحضارات على هدف شرير أساساً؟، إن المهاجرين من الأنجلوساكسون واليهود والذين أقاموا مستعمراتهم

فوق الأرض الجديدة أمريكا كان هدفهم الأول والأخير استيطان هذه الأرض واستعمارها مهما كان الثمن، وللأسف كان الثمن إبادة عشرات الملايين من السكان الأصليين لأمريكا.

وإذا انتقلنا إلى أوروبا الغربية ونظرنا كيف استغنت بريطانيا وفرنسا وكذلك بلجيكا وهولندا وغيرها، فإننا سنرى أن هذا التقدم العلمي والتقني فيها ما كان ليحدث لولا ما استلبوه من البلاد التي استعمروها ونهبوا خيراتها.

ولنتذكر كم من المناطق التي كانت بريطانيا تحتلها وتستعبد أهلها وتسرق ثرواتها في الهند ومصر والعراق وإفريقيا وغيرها.

وهل كان بمقدور بريطانيا وفرنسا أن تتقدما هذا التقدم لولا استغلالهما للبلاد المستعمرة ونهب خيراتها، وهل تكفي موارد بريطانيا الذاتية لتحقيق هذا التقدم العلمي والتقني، أم أن بداية نهضتها الصناعية والعلمية اعتمدت على ما نهبته من الدول والمناطق المستعمرة في عالم الشرق؟.

إذاً ما هذه الحضارة التي بُنيت على أموال السرقة واللصوصية، ونهب الشعوب المستضعفة وامتصاص دمائها وثرواتها؟.

إن الطاقات المادية من ثروات طبيعية تساهم بشكل كبير في بناء الحضارة المادية، ونعتقد اليوم أن البترول العربي وحده يكفي لقيام أكبر نهضة صناعية في العالم وخاصة العالم الغربي، وهذا البترول الذي يُستجلب من منطقة الخليج وحدها يفعل فعله في تحريك التقدم الصناعي الغربي.

فما نسميه أو يسميه الغربيون ـ الحضارة الغربية لا يقوم على مادياته الذاتية، فهي بشكل عام ضعيفة ولا تفي بالحاجة لذلك العالم، فالذين يتبجحون بأن الغرب هو مركز الكون الحضاري يتناسون بل يتغافلون أن التقدم الصناعي الواسع في الغرب يقوم في أساسياته على ثروات الشرق العربي والإسلامي. ولنتصور أن البترول العربي انقطع عن الغرب، ماذا يمكن أن يحدث وهل هناك من بدائل حتى يبقى التقدم الصناعي مستمراً وفاعلاً ومربحاً.

وبغض النظر عن هذه المسألة الاقتصادية التي يتغافل عن دورها الكثيرون فإن ما نريد قوله أولاً وأخيراً هو أن ما يسمى الحضارة الغربية في أمريكا والعالم الغربي، قام على أعناق ودماء الآخرين ومصادر رزقهم وثرواتهم، والمقصد من هذا الحديث أن ما يسمى الحضارة الغربية يتساقط بسبب معرفة الحيثيات التي تم من خلالها بناء ما يسمى بالحضارة الغربية.

وقد اعترف الكثيرون من الباحثين الغربيين المتخصصين في دراسة تاريخ بريطانيا وأمريكا أن ما يعرف اليوم بأمريكا وتقدمها العلمي أو الحضاري لم يقم في أساسه على مبدأ إنساني، إنما قام على القتل والإبادة والاستعباد.

لقد أقر الكاتب كليفورد لونجلي بأن المهاجرين البروتستانت من أوروبا إلى أمريكا قدموا إلى العالم الجديد ليبيدوا سكانه من الهنود الحمر، وقد تم لهم ذلك.

وإضافة إلى ذلك فإن تجارة الرقيق التي أودت بحياة الملايين من الأفارقة أو استعبدتهم كان لها الدور الأول في تقدم الزراعة والصناعة في كافة الولايات المتحدة[1].

ولنتصور أن حروب الإبادة التي شنها الأنجلوساكسون على شعوب أمريكا الأصليين اعتبرت حروباً مقدسة أمر بها الرب، وتقارباً مع شخصية يوشع التوراتي اعتبروا أن ما قاموا به من حروب إبادة تماثل تماماً ما قام به يوشع والإسرائيليون في العهد القديم.

(وهكذا فإن الروايات الكبرى التي يسردها العهد القديم قد تجسدت بقوة دائماً في المذهب البروتستانتي)[2].

فما معنى أن تقوم حضارة ما في تمثل الجريمة والعنصرية من أساس ديني معروف؟.

---

(1) كليفورد لونجلي، الشعب المختار، ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم، الشروق الدولية، 2003.

(2) المصدر السابق، ص40.

أوروبا وحضارة الماضي:

في هذا المقام لن ندرس التفصيلات حول شعوب أوروبا التي قطنتها وأقامت فيها ممالك أو إمارات على مدى مئات السنين.

ما يهمنا في هذا الإطار دراسة معالم الحضارة الغربية في عصور ما قبل المسيحية إن وُجدت، لنرى ما إذا كان ينطبق عليها مفهوم الحضارة أم لا؟.

ولاشك أن أهم معلمين من معالم أوروبا القديمة هما المعلم الإغريقي والمعلم الروماني، إن هذه الإمبراطورية بمفهومها الواسع تشكلت في فترات زمنية معروفة بالنسبة لليونان وكذلك بالنسبة للرومان.

يرى أرنولد توينبي أن ما يمكن أن نطلق عليه حضارة يتمثل بالحضارة المسيحية الغربية الكاثوليكية، وكذلك الحضارة المسيحية الشرقية الأرثوذكسية، ولا يعترف بأي حضارة حيّة قبل ذلك، ويرى أن الحضارة اليونانية قد ذهبت أدراج الرياح وكذلك الحضارة الرومانية، حيث ماتت هاتان الحضارتان موتاً نهائياً.

إن التاريخ لا يعطي أي أهمية لشعوب أوروبا من دون ربطها بالحضارتين اليونانية والرومانية. حيث إن كافة الباحثين الغربيين يرون أن جذور الحضارة الغربية هي جذور يونانية ورومانية.

وقد اعتبروا أن الحضارتين قدمتا نموذجين حضاريين عظيمين لما أبدعتاه من عمران ولما خلفته من آثار فلسفية وأدبية عظيمة.

وإذا أوجزنا تاريخ الحضارة اليونانية نرى الأمور التالية:

1 ـ في الوقت الذي كانت تعيش فيه حضارات الشرق في مجتمعات منظمة، وتبني فعلاً حضارات مادية راقية ظهرت حضارة بعض المدن اليونانية في بعض الجزر ومنها على وجه الخصوص حضارة جزيرة كريت.

وقد تحدث اليونان بشكل غامض عن تلك الحضارة وذكرها هوميروس في ملحمته الإلياذة، وقد قال الآثاريون إن شعب كريت عرف عدداً من الصناعات والزراعة وخاصة زراعة حوض المتوسط.

ولكن كريت التي لا تبلغ مساحتها أكثر من ثمانية آلاف كيلومتر لم تكن حضارة عالمية إنسانية إنما هي حضارة محلية لا أكثر ولا أقل.

ومنذ مطلع الألف الثاني وصلت إلى بلاد اليونان شعوب هندية أوروبية وظلت تصل إلى البلاد موجات متلاحقة فسيطرت على السكان الأصليين وأوجدت في البلاد واقعاً جديداً رسم مسار تاريخ بلاد اليونان. والشعب اليوناني تكوّن فيما بعد، ويرجع بمعظمه إلى مجموعتين من الشعوب الهندية الأوروبية هم الآخيون والدوريون، وقد بدؤوا يصلون إلى اليونان قادمين من آسيا الوسطى على دفعات، واندمجوا بالسكان وصاروا مثلهم وشكلوا شعباً واحداً تكلم لغة واحدة، ولعل أهم ما وصلنا من تاريخ اليونان وحضارتهم ما خلفه العصر الذهبي عندما استولى المقدونيون على سائر بلاد اليونان، ثم في زمن الاسكندر راح التوسع اليوناني يصل مداه في ساحل المتوسط الشرقي وقسم كبير من أوروبا.

وقد ارتسمت أولى خطوط الحضارة اليونانية في عدة مدن من آسيا الوسطى مثل مدينة أزمير وخوسيا وأفسوس وميلا، وسردا.

لكن اليونان تأثروا جداً بأفكار الشعوب التي احتكوا بها، ولاسيما الفينيقيون الكنعانيون ومنهم القرطاجيون، وكذلك بالمصريين والفرس.

وتقول المصادر أن حضارة إسبرطة مثلاً قامت على التقسيم الطبقي فكان فيها ثلاث طبقات، ومنها الوطنيون الأحرار ثم العامة، وهم بشكل عام فقراء الفلاحين والصناع وطبقات العبيد الذين يُباعون ويُشترون، وكان نظام الحكم استبدادياً محصوراً بيد الأسياد.

أما عصر الاسكندر المقدوني الذي اشتهر بفتوحاته حتى بلغت بابل وبلاد الفرس، فقد اعتقد كما علمه أرسطو أن الإغريق أفضل الشعوب وأن الغرباء أو البرابرة دونهم مستوى؛ فلا يحق للإغريق أن يتساووا بالفرس أو غيرهم من البرابرة. لكن مصادر التاريخ تقول إن الإسكندر انقلب على تعاليم أرسطو فحاول أن يوحّد بين الشعوب لينهض بحضارة إنسانية عالمية.

وقد اختلطت أفكار اليونان بأفكار الشرق بعد احتلال الإسكندر وقادته الساحل الشرقي للمتوسط فخرج ما يسمى بالحضارة الهلنستية[1].

فعلى المستوى المادي استطاع اليونان مجاراة شعوب الشرق في بناء المدن والقصور والأسوار وصنع التماثيل، وعلى المستوى الفكري قدموا عدداً كبيراً من الفلاسفة والحكماء أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيين والسفسطائيين وغيرهم، وعلى مستوى الأدب قدموا الملاحم الشعرية كالإلياذة والأوديسة، وقدموا في المسرح العديد من المسرحيات الراقية التي ما تزال إلى اليوم تأخذ بإعجاب الكثيرين، أما على المستوى الديني فظلوا على وثنية تعددية واضحة ولم يقدموا تطوراً ملحوظاً في العقائد.

وعلى المستوى الاجتماعي فقد تميزوا بشكل إجمالي في تقسيم المجتمع إلى طبقات، ومنها طبقة العبيد وهم بمئات الألوف من الأسرى والمخطوفين، ومن فقراء الشعوب ونحن بهذا الصدد لا ننكر ما قدمته الحضارة اليونانية لكنها بالطبع وقعت في مطب سوء استخدام الحضارة، فقد كرست الطبقية وكرست الحروب والفتوحات التي قد تجر في بعض الأحيان لحروب إبادة ضد الشعوب الأخرى.

لقد تصور العديد من الباحثين والمفكرين الغربيين أن ما قدمه اليونان يعتبر معجزة حضارية تعتز بها أوروبا وتعتبرها رمزاً من رموز العطاء المركزي للغربيين.

ونحن هنا نتوقف قليلاً محللين لعطاءات هذه الحضارة.

فعلى مستوى التنظيم الحضاري الاجتماعي والسياسي نقول: إن الشرق سبق اليونان في ذلك، ولو نظرنا إلى حضارة الآشوريين والبابليين لوجدنا أن ما قدم من تنظيم اجتماعي وسياسي في بلاد الرافدين هو أسبق مما قدمته الحضارة اليونانية بل إن دراسة الحضارة العربية اليمنية دراسة صحيحة ترشدنا إلى أن الممالك التي قامت في اليمن بنت حضارة مادية مجتمعية سبقت بكثير ما يسمى المعجزة الحضارية

(1) موسوعة عالم التاريخ والحضارة، الجزء الأول، نابوليس، الطبعة الأولى، 2003.

اليونانية، وإذا نظرنا إلى مقياس العطاء الفكري والملحمي والأدبي الأسطوري وجدنا أن الشرق قدم أساطير مثل أسطورة جلجامش، أو أساطير الكنعانيين المتعلقة ببعل وإيل وعناة، وكذلك أساطير المصريين، وهي بشكل عام تتفوق على ما قدم من أساطير يونانية.

وحتى على مستوى الميثولوجيا نرى أن اليونان اقتبسوا من الشرق مجامع الآلهة وما يتعلق بها من أساطير وأسماء وثنية.

فالإله إيليوس عند اليونان مقتبس من الإله إيل الكنعاني، والإله بوصيدون وهو إله صيداوي أصبح لدى اليونان بوسيدون، وهو إله البحار، وأحياناً يحرفون اسم آلهة إلى أسماء يونانية ويبقى فعلها وصفاتها الشرقية ملتصقة بها.

ولعل الحروب التي خاضتها الآلهة اليونانية في ملحمة الإلياذة مقتبسة بشكل عام من الحروب والصراعات التي حدثت بين أفراد المجتمع الإلهي الكنعاني الفينيقي، بل إن ما وضعه حمورابي من تشريعات اجتماعية يسبق بكثير ما قُدم من تشريعات يونانية من حيث الأسبقية التاريخية ومن حيث جدوى وقيمة التشريعات وانعكاساتها على العلاقات بين أفراد المجتمع[1].

وإذا انتقلنا إلى دراسة الحضارة الرومانية التي ورثت اليونانية في السيطرة على أوروبا وساحل الشرق نرى الآتي:

إن الحضارة الرومانية هي خليط من اليونان الذين استقروا في جنوب إيطاليا ومن الفينيقيين الكنعانيين القرطاجيين الذين استقروا في الجزر ونقلوا إلى إيطاليا حضارة الشرق.

وعندما سيطر أهل روما على قوة القبائل الأتروسكانية راحوا يتوسعون حتى أصبحت إيطاليا كلها بأيديهم.

---

(1) انظر كتاب: اللآلئ نصوص من الكنعانية الأوغاريتية، ديل ميدكو، ترجمة مفيد عرنوق.

وعظمة روما قامت على الجيش، وقد تميز الرومان بالخشونة وحسن التنظيم وبسبب احتلال الرومان لبلاد عديدة منها بلاد الشرق العربي تدفقت عليها الأموال وراحت تبني حضارة مادية غنية.

ولعل أهم المحطات التاريخية في تاريخ الرومان موت أغسطس قيصر سنة 14م، وتولي أربعة من أولاده الحكم إلى أن حكم بعدهم نيرون، الذي تصفه المصادر بأنه جنح إلى الظلم فقتل الكثيرين بمن فيهم معلمه سنيك وزوجته وأمه، واضطهد المسيحيين اضطهاداً شديداً، حتى أنه أحرق روما واتهم المسيحيين بإحراقها وقد قتل سنة 68م.

وتبعه في الحكم فسباسيانوس ثم ابنه تيطوس الذي أحرق مدينة القدس، وأهم ما يميز الرومان أنهم كانوا عميقي الإيمان بالآلهة الوثنية، وكان لهم آلهة كثيرة حتى قيل إن لكل عائلة إلهها. وعبدوا الأجداد. وقد تأثر الرومان بديانة بقية الشعوب خاصة اليونان والفينيقيين، والمصريين وتبنّوا آلهة اليونان وعبدوها وأعطوها أسماء لاتينية، فعبدوا زيوس إله السماء باسم جوبيتر، وإله الحرب أريس باسم مارس، وفروديت آلهة الحب والجمال ومنحوها اسم فينوس، وآلهة الحكمة أثينا ومنحوها اسم مينرفا، وآلهة الصيد أرتميس وأعطوها اسم ديانا، وعدداً آخر من الآلهة اليونانية، مثل الإله نبتون وأبولون وبلوتون وباخوس.

وقد منح الأباطرة لأنفسهم صفة القداسة وألزموا الشعب على تقديم القرابين لهم.

وقد اضطهد الرومان المسيحيين اضطهاداً شديداً، فكانوا ينكلون بهم ويحرقونهم ويقتلونهم ويرمون بهم إلى الوحوش الكاسرة. وفي عهده قرر الإمبراطور ديوقليسيانوس سنة 303م أن يقضي على المسيحية فأمر بهدم الكنائس وإحراق الكتب وقتل كل من يرفض تقديم الذبيحة للإمبراطور[1].

(1) موسوعة عالم التاريخ والحضارة، المجلد 2، نابوليس، بيروت، ط1، 2003.

ولاشك أن الرومان عرفوا الحضارة المادية بشكل واسع فبنوا القصور والمعابد وأقاموا الموانئ والأساطيل البحرية، وكذلك تميزوا ببناء المدرجات الرياضية لمشاهدة الألعاب الرياضية، وقد منحوا شعوبهم عدداً من الفلاسفة والأدباء، ولكننا إذا نظرنا إلى روح الحضارة الرومانية لا نجد منها شيئاً، إذ لم يبقَ سوى الآثار المادية بينما ذهبت عقائدهم وآدابهم أدراج الرياح لأنها أساساً كانت قائمة على الوثنية.

فإذا كانت الحضارتان اليونانية والرومانية محل اعتزاز الأوروبيين فإننا لابد أن نذكر أن أسوأ تاريخ عاشه الأوروبيون هو في القرون الوسطى، أي بعد تحلل الحضارة الرومانية وانقسامها أو انقسام المناطق الخاضعة لها إلى دويلات مستقلة.

فقد شهدت أوروبا في هذه القرون ظلاماً دامساً، فتخلفت مثُلها وقيمُها الاجتماعية والسياسية والفكرية خاصة بسبب التحالف بين الكنيسة والنبلاء واضطهاد عامة الشعوب من الفقراء والفلاحين.

ولا يمكن أن ننسى الحروب الدموية التي شنها الإفرنج على بلاد الشرق بدءاً من الحملة الإفرنجية الأولى عام 1097م، ومن ثم احتلال مدينة القدس وإجراء مجزرة لم يعرف التاريخ مثلها، والتي راح ضحيتها ما بين 70 ألفاً إلى تسعين ألفاً من العرب القاطنين في المدينة.

إننا لن نناقش المعطيات الحضارية إن وجدت في العصور الوسطى، أو ما تسمى عصور الظلام الأوروبية فهذا بحث آخر، وما يهمنا في هذا الصدد أن نلخص ما قدمت الحضارة اليونانية والرومانية من حضارة مادية وثقافية أفادت أو لم تفدْ بقية الأمم والشعوب.

فاليونان والرومان بنوا حضارة مادية قوية، تمثلت بالقصور والمعابد والمنشآت العمرانية الأخرى، وقدموا الكثير من الفلسفة والحكمة في ظل العقائد الوثنية، لكنهم لم يتقدموا ولو خطوة واحدة باتجاه عقيدة التوحيد بل إنهم تعصبوا للعقيدة الوثنية تعصباً كبيراً، وحاربوا كل من خالفهم في عقيدتهم.

وإذا نظرنا اليوم إلى الآثار الفكرية والدينية التي قدمها اليونان والرومان قبل عصر المسيحية لا نجد شيئاً يعتز به الإنسان، فتلك العقائد وثنية تنم عن تخلف عقلي ونفسي خاصة إذا ما قارنا ذلك بما قدم الشرق العربي والشرق بشكل عام من عقائد توحيدية متقدمة.

ولا ننسى أن الحضارتين لم تقوما إلا بعد أن شُنت الحروب الدموية على الشعوب الأخرى، وبعد أن شهدت اليونان وإيطاليا حروباً دامية بين العروق والقبائل الغربية الطامعة بالحكم والسيطرة على البلاد والعباد.

ولعل الفرق بين جوهر الحضارة الغربية وغيرها، أنها منذ بدء التأسيس وحتى النهاية امتزج الهدف بالبناء الحضاري، وبشكل عام لم يكن الهدف يسعى إلى إنقاذ الناس من الوثنية إلى الهداية والتوحيد أو إلى تعميم السلام والعلاقات الإنسانية المحترمة بين الشعوب.

الشرق وحضارة الماضي:

لاشك أن دراسة حضارة الشرق واسعة ومعقدة وشائكة.

فأول ما يشكل على الباحثين تعريف حضارات الشرق ومنبعها، فتارة يصفونها بالحضارات السامية، وتارة أخرى يصفونها بأنها عربية الأصل، وتارة أخرى ينعتون كل حضارة باسمها دون التحدث عن جذورها العرقية، وجميع الدارسين يعرفون أن الحضارة في الشرق العربي تمركزت في وادي النيل ووادي الفرات ودجلة واليمن، وهذه المناطق الثلاث كانت أكثر من غيرها في العطاء الحضاري والاستمرارية.

ولكن ميزان الحضارة يختل أحياناً ونحن نقتصر على هذه المناطق في تحديد الحضارات الشرقية القديمة، فهناك حضارات أخرى وجدت أيضاً في شمال إفريقيا وفي فلسطين ولنقل الساحل الشامي الذي يضم اليوم سوريا ولبنان وفلسطين.

تشير الدراسات التاريخية والآثارية إلى أن مصر حفلت بحضارة قديمة جداً وأكثر المصادر دقة في ذلك تقول: إن حضارة مصر امتدت إلى القرن الرابع ق.م، عندما سيطر الإسكندر المقدوني على مصر.

وقد عرفت مصر التمييز الطبقي، ففي كافة عصورها انقسم المجتمع إلى الأغنياء والكهنة والملك وبقية الشعب من عامة الناس والعبيد، ومعظم السكان كانوا يعملون في الزراعة.

وقد عبد المصريون الأشياء التي يخافون منها، وقد ألّهوا عدداً من الحيوانات، فألّهوا مثلاً النيل والسماء والأرض والقمر والشمس، وآمن المصريون بالحياة الثانية لذلك استنبطوا طريقة للتحنيط وبنوا المقابر وأعظمها الأهرامات، وأهم ما يميز العبادات في مصر انتقالها من تعدد الآلهة إلى التوحيد في زمن الفرعون أخناتون الذي قام بانقلاب ديني ضد عبادة آمون.

لقد تركت الحضارة المصرية القديمة في كل مراحلها آثاراً مادية كبيرة كالأهرامات والمعابد والقصور، لكنها قامت على جماجم الفقراء والعبيد والأسرى من الشعوب الأخرى[1].

أما بلاد الرافدين دجلة والفرات، فقد شهدت عدة حضارات متعاقبة، ويرى الباحثون أن أقدم تلك الحضارات الحضارة السومرية، مع أننا لا نؤكد أن هذه الحضارة هي حضارة شرقية؛ لأن السومريين لم يكونوا من أبناء المنطقة إنما كانوا وافدين إليها، وقد عُرفت ديانة السومريين بتعدد الآلهة فعبدوا إله السماء (أتوا) و(إنليل) إله الجو والأرض و(أيا) إله الماء، وعبدوا الشمس والقمر والكواكب وآمنوا بالحياة الثانية على طريقتهم، وتعاطوا السحر والعلوم.

وأكثر مدنهم شهرة هي مدن كيش وأور وأوروك (الورقاء) ولاغاش وأوما، وقد عرف السومريون الكتابة المسمارية والرياضيات والأعداد والمقاييس وعلم الفلك، ووضعوا أقدم القوانين وأنشأوا أقنية الري، وبنوا السفن وصنعوا الفخار، وبنوا الأبنية ومن أشهرها الزقورة، وكان لهم أدب وأساطير انتقلت إلى البابليين الذين هاجروا من جزيرة العرب وسيطروا على السومريين وبلغوا

(1) موسوعة عالم التاريخ والحضارة، المجلد الأول، ص ص 55 ـ 56.

ذروتهم في عهد حمورابي 1848 ـ 1806ق.م، الذي تم في زمنه وضع قوانين سميت بقانون حمورابي، وهذه التشريعات تعتبر من أهم ما قدمت الحضارة الشرقية من أمور تنظيم حياة البشر، وقد اكتشفت هذا القانون بعثة فرنسية سنة 1902م في مدينة شوشا وهو محفور على نصب من الديوريت وطوله 245سم، والقانون يتألف من مقدمة و282 مادة، وهو يميز بين طبقات الشعب الأسياد الأحرار، والمساكين والفقراء، والعبيد، وهذا التمركز الحضاري للبابليين كان أقرب إلى الجنوب منه إلى الشمال.

حيث نرى أن حضارات عربية قامت في شمال بلاد ما بين النهرين، ومنها حضارة الآشوريين الذين جعلوا من مدينة الموصل عاصمة لهم، ومن أهم مدنهم الحضارية مدينة نينوى، وبنوا المعابد وصنعوا السفن التجارية، واعتقدوا بوجود حياة ثانية، وأتقنوا علم الفلك والسحر، وقد جمع ملكهم آشور بانيبال مكتبة ضخمة حوت ألوف اللوحات، وأبرز معالمهم المادية النحت والتصوير، فنحتوا تماثيل ضخمة ونحتوا الأسود المجنحة وجعلوها تحرس القصور والمعابد.

وإلى الشمال هاجر الكنعانيون من جنوب الجزيرة العربية واستقروا في فلسطين ولبنان والساحل السوري، وأقاموا المدن في جبيل وصور وصيدا ويبوس (القدس) وأوغاريت وعمريت وغيرها. لم يشكل الكنعانيون دولة واحدة واعتمدوا على التجارة دون الحرب، وقدموا للعالم الحروف الأبجدية التي اكتشفت في أوغاريت.

عرف الكنعانيون العقائد، وتشير الدراسات إلى أنهم كانوا قريبين من عقيدة التوحيد التي مثلها الإله إيل (الله)، وقد عرفوا الملاحم، والأساطير المتعلقة ببعل وعناة، ويم نهار وعشيرة وغيرها، وقد اقتبس اليونان كثيراً من أساطيرهم وأسماء ورموز آلهتهم.

وقد امتازوا عن غيرهم بأنهم عرفوا الموسيقى وطوروها، وكان لهم إلمام بالفلسفة، ومن فلاسفتهم موخوس الصيدوني، وزينون، وقد أتقنوا عدداً من

العلوم كالحساب والجغرافيا، ووضعوا الخرائط واهتموا بالفلك والزراعة والتجارة كثيراً[1].

إضافة لهذه الحضارات فقد عرفت المنطقة العربية حضارات راقية بما قدمته من عمران وآداب وسياسة كحضارة مدينة ماري على نهر الفرات وحضارة إيبلا والقريبة اليوم من إدلب في تل مريديخ، وحضارة أريحا ومدينة يبوس (القدس) وغيرها.

ولابد في هذا المقام أن نتعرض بالحديث المختصر عن حضارة اليمن التي يحاول بعض المؤرخين المشبوهين التغافل عنها.

وأقول ذلك لأن موسوعة التاريخ والحضارة التي أصدرتها مؤسسة نابوليس وكانت بإشراف عدد من الاختصاصيين اللبنانيين في التاريخ أغفلت تماماً ذكر الحضارة اليمنية، وما أقيم فيها من ممالك، وما لدورها في تغذية المنطقة العربية من العامل البشري.

إذ جميع الهجرات التي انتقلت إلى بلاد الرافدين وكذلك إلى وسط سورية وفلسطين ولبنان جاءت من جنوب الجزيرة العربية، وهناك من الأدلة ما يثبت ذلك، وخاصة اللهجات العربية ذات المصدر الواحد والشكل الخارجي للإنسان من سحنة وأجسام وعادات وتقاليد.

إن اليمن التي يغفلها أو يتغافل عنها هؤلاء قدمت حضارة راقية، وأنشأت أيضاً مملكة حضرموت، ومملكة حمير، ومن أشهر من عرفوا بحكم اليمن التبابعة، فقد حكم منهم تسعة ملوك وهم أبناء حمير بن سبأ[2].

وقد عرف عن اليمنيين ولعهم بإقامة السدود والري والزراعة، وسد مأرب شاهد على عظمة تفكيرهم وحركتهم العملية.

---

(1) المرجع السابق، ص 100 ـ 101.

(2) ابن خلدون، التاريخ، المجلد 2، ص 244.

وقد عبدوا الآلهة الوثنية وكانت أكثر عبادتهم تتجه نحو الشمس، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم عندما تحدث عن ملكة سبأ التي التقت بالنبي سليمان وأسلمت لله الواحد الأحد.

وقد عرفت اليمن نظام الحكم الملكي، وامتاز تاريخها بحروب دفاعية قام بها أهلها ضد الطامعين من الفرس والأحباش وغيرهم، ولكن حضارتهم العمرانية كانت متقدمة ومتميزة، وما تزال الشواهد الأثرية موجودة لهذا الوقت في اليمن والتي تدل على طراز عمراني مميز يختلف عن طراز كافة أنواع العمران في المنطقة العربية.

ماذا نستخلص مما تقدم؟:

إن الحضارات لا تقتصر على مكان جغرافي دون مكان، فكما قامت حضارة في الجزر اليونانية وإيطاليا، قامت أيضاً حضارات شرقية في مصر وبلاد ما بين النهرين وسوريا الداخلية وسوريا الساحلية واليمن والمغرب العربي.

وزمنياً لم تسبق حضارة اليونان والرومان الحضارات الشرقية، ولم تتفوق عليها بالعمران، وإنشاء المدن والتوسع والتنظيم، ولم يقصر الشرق العربي عن حضارة الرومان واليونان في الأساطير والعقائد والفنون والآداب على الرغم من أن العديد من الباحثين والآثاريين أكدوا أن حضارات الشرق هي أقدم زمناً من الحضارتين اليونانية والرومانية.

فإذا كانت نظرية المركز الأوروبي تعتمد في أول جزء منها على قيام الحضارتين اليونانية والرومانية، فإن الحضارات الشرقية وُجدت أيضاً منذ فجر التاريخ، وإذا خلّفت الحضارتان الآثار المادية كالقصور والمعابد والمدن، فإن الشرق أيضاً عرف الحضارة المادية وبنى المدن والقصور والمعابد، ونظم حياته الاجتماعية وتوسعوا مثل ما توسع اليونان والرومان.

وإذا كانت الحضارتان قد عرفتا الدساتير والقوانين، فقد عرفت حضارات الشرق القوانين والدساتير الاجتماعية والسياسية والقانونية أيضاً، وإذا كانت

الحضارتان عرفتا المعابد الوثنية والتعدد، فقد عرف الشرق أيضاً هذه العبادات بل إن فترات زمنية مرت على الحضارات الشرقية عرفت فيها نوعاً من التوحيد والابتعاد عن التعددية.

وكذلك الملاحم والأساطير والحكمة والفلسفة والآداب وُجدت جميعها في الغرب كما وُجدت في الشرق.

فلا شيء يحقق ما يسمى مركزية الغرب الحضارية، ولا شيء في تلك الحضارات الغربية يفضل ما قدمه الشرق الحضاري القديم.

وجميع الدراسات تؤكد تأثير حضارة الشرق بالحضارتين اليونانية والرومانية في كثير من المجالات: الاقتصادية والسياسية والدينية والتجارية وغيرها، وبذلك ندحض الجزء الأول من نظرية مركزية الغرب الحضارية، ولننتقل إلى ما هو أهم في الفصل الذي يلي هذا الفصل.

obeikandl.com